مذهب التدرج والانتقال
فى أنواع البلاغة

فرديناند برونتيير هو صاحب هذا المذهب[1]. ويجدر بنا أن نجمل آراءه ومذهبه فيما يأتى:

تربى برونتيير تربية علمية، وسارت أفكاره وآراؤه فى طريق علمى حتى فى مذهبه الأدبى وفى طريقته فى النقد. ولذلك لم يكن يميل إلى الوضوح والصراحة، ولا يعجب إلا بالآراء السليمة الصحيحة. وعمل على إصلاح

(١) فرديناند برونتيير Ferdinand Brunetiere هو صاحب مذهب التدرج والانتقال فى أنواع البلاغة "L.evolution des genres litteraire"

ولد سنة ١٨٤٩ ومات سنة ١٩٠٧ وهو من أكبر أدباء القرن التاسع عشر، تقلب فى مراكز العلم والأدب، وكان من أعضاء المجمع اللغوى الأدبى فى فرنسا، وأستاذ الأدب والبلاغة فى مدرسة المعلمين العالية، ورئيس تحرير مجلة العالمين الشهيرة.

تقلب فى هذه المناصب كلها ولم يمكنه الحصول على شىء من الشهادات العلمية غير الشهادة الثانوية. وخاب مرات فى إجازة امتحان الليسانس، فعكف على القراءة والدرس. وكان يعرف اللغات القديمة والحديثة. فتوصل بفضل ما كان لديه من الجلد وحب المطالعة، وفكره الثاقب وذكائه العظيم، وقوة إرادته وثقته بنفسه، إلى أن أصبح من علماء فرنسا وأدبائها وأكثر أئمة الأدب وقادة الأفكار؛ بل صاحب مذهب الأطوار الأدبية أو "مذهب التدرج والانتقال" وأثر فى الحركة الفكرية فى فرنسا أثرًا عظيمًا وكان من أصحاب العقول النادرة فى حب القراءة والميل إلى الاطلاع على كل شىء. فقد قرأ قراءة تامة وعرف معرفة تامة كل ما أنتجته عقول جميع الأمم فى القرن السادس عشر والقرن السابع عشر والقرن الثامن عشر وقرأ الآداب القديمة وآداب القرون الوسطى وقرأ كل ما ظهر فى عصره فكان أكثر الناس شرها فى الاطلاع.

كثيـر من الأفكار السقيمـة التى كانت منتشرة فـى الآداب. وكان يقول: "إن الأفكار قوة ذات أثر، وإن البلاغـات شىء آخر غير نوع من التـسلية واللهو" وكان يرى أن البلاغـة "الشخصيـة" أى الكتابات التى منشأها مـيول الكتاب وأهواؤهم بدون نظر إلى المجتـمع، ولا إلى النفوس العامة، ليـست إلا ضربًا من الأهواء والشـهوات النفـسية. فـإنها خطر علـى الأخلاق وعلى البـلاغة نفسـها، ولأنها لا تمثل شيـئًا من الحيـاة الاجتماعـية العامة، التى هى حـياة الآداب والبلاغات ولذلك كان ضد مذهب الوجدانيات "Romantisme" ولهذا أيضًا أحب أن لا يكون مذهبـه فى النقد مذهبًا شخـصيًا، كى لا يحكم على الكتابات بذوقه الخاص، أو ربما يحدثه فى نفسه أثر القراءة. بل أراده أن يضع مذهبًا عامًا للنقد، مبنيًـا على أساس علمى وعلى الموازنة بالكتابات الشهيرة. لا لأنها نموذج ونظام فـريد، بل لأنها أمثلة تدل علـى طرق الإتقان فى الفكر والصناعة. وكان لا يهمه من القراءة أن يعجبـه ما يقرأ، بل صحة ما فيها من الأفكار والآراء والافتنان والـصناعة، لكبار الكتـاب. ثم يتسـاءل بعد ذلك: "هل للكاتب غرض يرمى إليـه؟ وهل من غرضه أن يهدى القـراء إلى فضيلة من الفضائل"، لأنه لا يرى غرضًا جديرًا بالكتابة، ذا قـيمة حقيقية لأى نوع من أنواع البلاغة، إلا إذا كان يؤدى إلى نوع من أنواع التهذيب، أو يرشد إلى فكرة نافعة فى الاجتماع. لـذلك كان يحارب مذهب القائلين: أنه يلزم النظر إلى الفنون من حـيث أنها فنون "l' Art pour l' Art" لأنه كان يرى أن الكتابة الأدبيـة يجب أن تترك فى نفس الـقارئ أثرًا نافـعًا، وأن الحـذاق وأصحـاب الفنون لا يستحـقون هذه الألقاب إلا إذا استعملوا الفنون وسـيلة تساعد على نمو "الإنسانية" فى الإنسان. وقسم الفنون إلى فنون عظـيمة، وفنون حقيرة. فإن من الفنون مـا ليس إلا ضربًا من اللهو واللعب والتـسلية. وهى مع ذلك

تأخذ بالألباب وتسحر العقول بجمالها وبلاغتها، ومنها ما هو جدى متين ممتع[1].

أما طريقته فى النقد، فكان يرى أنه يجب الاهتمام بإظهار عيوب الكتاب أو الشعراء قبل الاهتمام بإظهار محاسنهم، لأن العيوب هى ضرب من المحاسن فى نظر الكاتب أخطأ فى فهمها. فمن المفيد فى النقد تمييزها من المحاسن الحقيقية. فالذى يتعمد إظهار عيوب الكتاب هو فى الحقيقة يعمل على إظهار محاسن الكتابة، كما أنه يعمل على تجنب العيوب بإظهارها وشرح الوسائل والأسباب التى دعت إليها. وعلى ذلك فالنقد الذى من غرضه البحث عن عيوب الكاتب يقصد إلى إظهار قواعد البلاغة الصحيحة ومحاسن الكتاب التى يجب اتباعها. هذا هو أصل طريقته فى النقد. وكان يعمل على تأييد فكرته ومذهبه بعزم صادق، وحجة قوية، وصراحة نادرة. فقد كان من أكبر الرجال الذين خصوا بقوة الجدل وحب المخاصمة والمناقشة، ولذلك كثر أعداؤه ولم يكن له من الأصدقاء إلا تلاميذه وقليل من إخوانه.

وقد امتاز برونتيير ميزة خاصة بمذهبه الأدبى، وأصبح إمامًا ومخترعًا لمذهب علمى أدبى: فقد انتحل من مذهب دارون العلمى مذهب "التدرج والارتقاء" مذهبًا أدبيًا هو مذهب "التدرج الأدبى". فقد رأى أن الأنواع

(١) مثال ذلك: البلاغة الشخصية والبلاغة الاجتماعية، إذ البلاغة الشخصية - التى لا يجد القارئ غير شخصية الكاتب - قليلة الفائدة. لأن الكاتب لا يهتم فيها إلا بأحواله الخاصة مما لا يفيد كل إنسان ولا يؤثر فى كل نفس، وهذه فى نظره هى الآداب الحقيرة. أما الآداب العظيمة الاجتماعية فهى التى تظهر نصيب الكاتب مما اكتسبه من الأفكار الاجتماعية، أو على رأيه، هى التى تبين من الإنسانية، الذى يتفق به مع غيره ويتذوقه سواه، وهى الآداب النافعة. وأصحابها يمقتون الشخصيات وأحوال النفوس الخاصة.

الأدبية: من وجدانيات واجتماعيات وشعر ونثر تمثيلى، تنقسم إلى فصائل كما فى علم النبات والحيوان، وأنه يجرى عليها قانون التدرج والارتقاء الذى يجرى على الأنواع الحية سواء بسواء. ويرى أن لها أطوارًا تتخطاها كأطوار النبات والحيوان. فقال: "إن الأنواع الأدبية ككل شىء حى فى هذا الوجود، تولد لتموت ولتدركها الشيخوخة على حسب ما تلد وتنتج من المؤلفات النافعة الممتعة. ومثل ذلك مثل من ينسخ كتابًا على كتاب آخر، وينسخ من هذا كتابًا ثانيًا ومن الثانى ثالثًا وهكذا فتكون كل نسخة تابعة لما قبلها مع شىء من التحريف إلى أن تكون النسخة الأخيرة كأنها غير الأولى، أو كأنما كتبها أحد تلاميذ المؤلف ولم يؤلفها أستاذ حاذق". قال: "وهكذا تفنى الأنواع الأدبية، مهما حاول الكتاب حفظها وبلوغها إلى درجة الإتقان أو ما يقرب منه" ويقول: "كما أن العقول تتشابه فتتآلف، وتتناكر فتتخالف، كذلك المؤلفات الأدبية التى هى نتائج العقول، تكون أنواعًا قريبة أو بعيدة من بعضها. وإن هذه الأنواع لازمة للمجموعات الأدبية. وإن لها حياة خاصة وصناعة خاصة بكل واحد منها، توجد وتتوالد فى الأفكار توالدًا ساذجًا أوليًا، ثم تتكون ويتم تكونها شيئًا فشيئًا، وتنمى كما ينمى الحيوان والنبات، إلى أن تنضج، ثم تقف برهة من الزمن حافظة حياتها إلى أن تدركها الشيخوخة، ثم تتحول إلى نوع آخر فنحيا مرة أخرى وهكذا . . ." وعنده أن تاريخ البلاغة عبارة عن تتبع هذه الأنواع فى جميع أطوارها وأعمارها، وفى جميع أدوار حياتها وتقلباتها. قال: "وهذا ما يحمل على الظن بأن تاريخ البلاغة يمكن أن يكون علمًا من العلوم. وعلى هذا المذهب يمكن أن نفسر ما يعترى بعض الأنواع الأدبية من الوقوف والانحطاط، وما يدعوها إلى الظهور مرة أخرى (كما حصل فى الشعر الوجدانى فى فرنسا، فقد مر به نحو قرنين

وهو فى حالة الموت ونزاع، ثـم انتشر انتـشارًا غريبًـا وحيى حيـاة أخرى فى أوائل القرن التاسع عشر بحال لم تكن له فى حياته الأولى. وكاد يكون النوع الوحيـد فى البلاغة الفرنسـية. ومثل ذلك يقال فى غـيره من الأنواع). ومن الأمثلة على مذهبه: أن القصص الطويلة الموجودة الآن أصلها حكايات قصيرة جاءت من المحادثات ثم تكونت وكبـرت شيئًا فشيئًـا إلى أن أصبحت إلى ما هى عليه الآن وتولدت من ذلك أنواع كثيـرة، وكان يتغلب فى كل زمن منها على غيره ثم يظهر منه نوع لآخر يمحو الأول.

هذا المذهب هو القول بأن الأفكار الإنسانية والفنون جميعها مرتبة ترتيبًا طبعـيًا، فـصائل فصـائل، ومجمـوعات مـتحدة الجنس، كـفصـائل النبات والحيـوان، وأن لكل مجمـوعة قـوانين ونظامات وسلسة حـياة خـاصة تولد وتعيش وتموت، وأن هذه الأنواع إذا بلغت ذروة مجدها تحولت إلى أنواع أخر كمـا يتـحول النبـات والحيـوان، أو وقفت برهة من الزمن ثم عـادت إليـها حياتهـا. . . إذا تم بناء هذا المذهب كان من أعظم مذاهب النقـد التى تساعد على دراسـة تاريخ البـلاغة وكـشف مـخبـأ أنواع الكلام، وترتيب وتبـويب ضروب الكتـابات وجعلهـا خاضـعة لقوانين عـامة كـالأنواع الحيـة والمسائل العلمية. وعلى ذلك يصبح النقد الأدبى علمًا من العلوم لا فنًا من الفنون كما هو الآن. ولكن ذلك لم يتـحقق بعد، وربما يتـحقق أبدًا، لأن الأدب فن لا علم هذا المذهب العلمى البـحت يخالفه وينازعـه مذهب آخـر فى النقد وهو مذهب التأثيـر والانفعال "Impressionisme" الذى من أئمتـه ودعاته "جول لمتر" وهو من كبار الكتاب الحذاق والنقاد الشهيرين ومذهبه من أشهر المذاهب الأخيرة فى النقد لأن الرجل مات سنة ١٩١٤.